الذكرى المئوية الاولى

لوفاة خادم الله الاب نعمة‌الله كساب الحرديني

(١٨٥٨ – ١٩٥٨)

بقلم الاب بطرس سازه اللبناني

مئة سنة مرت على جثمان رجل الله نعمة الله الحرديني الثاوي في ضريحه بدير مار قبريانوس كفيفان ، سليماً متماسك الاعضاء ، وكان وما زال ذلك الضريح مزاراً شهيراً وينبوعاً فياضاً بالشفية النفس والجسد . وقد رفعت دعواه الى رومية في السنة ١٩٢٨ مع رفيقيه خادم الله الاب شربل مخلوف والراهبة رفقا ، بعد ان تعينت لجنة خاصة قامت بالتحقيق المحلي بحسب الاصول القانونية وأجري الكشف الطبي بامر السلطة الكنسية ، على ذلك الجثمان الطاهر ، فوجد على سلامته ، صامداً ضد عوامل الفساد .

وكنا نتمنى ان نحتفل بتلك الذكرى المئوية السعيدة احتفالاً باهراً اذ اسعدها الحظ بان تلتقي هي والذكرى المئوية الاولى لظهورات السيدة العذراء في مغارة لورد (١٨٥٨) . ولان الاب نعمة‌الله الحرديني كان من اوفى واخلص المتعبدين للعذراء الكلية القداسة وفي طليعة من حملوا لواء عقيدة الحبل بها بريئة من دنس الخطيئة الاصلية ، بعد اعلانها عقيدة ايمانية في السنة ١٨٥٤ . وكان من اشد المحرضين على الانخراط في اخوياتها . وقد لفظ انفاسه الاخيرة وهو يقول : « فليكن مباركاً الحبل بسيدتنا مريم العذراء البريء من الدنس » .

اجل لقد كنا نفوز بتلك الامنية ، لو لم ترَ السلطة المختصة ان مثل هذه المظاهرات قد تقف عقبة في سبيل الدعوى ونجاحها . لذلك اعرضنا عن مثل هذا الاحتفال واكتفينا بهذا المقال عن حياة ذلك الراهب المثالية المشعة باسمى الفضائل واكرم الصفات ، بها اخذ وعليها نسج في حياة ملائكية تلميذه خادم الله الاب شربل مخلوف . فكان كلاهما بطلي رهبان سارا في طريق الكمال المسيحي بخطىً جبارة ورفعا علم الفضيلة عالياً في سماء لبنان وفاح شذا فضائلها فعطر سائر الاقطار وتردد صداه من وراء البحار .

ان لنا في تراجم اوليا. الله اعظم عبرة واسمى موعظة واسطع دليل على تلك القوة الروحانية التي تصوغ من الانسان الترابي ملاكاً سماوياً وتأتي به من عزلة الدير وصمت الصومعة فتقيمه افصح لسان يذيع بمجد الله ويمثل كمالاته الالهية في وسط سطت فيه المادة على الروح وطرحت بهذا العالم في مهاوي القلق والاضطراب مما عجز المفكرون واساطين السياسة عن مداواته باستقرار السلام الحقيقي .

على اننا نرى ان انجع دواء وأصلح وسيلة للسلام المنشود انما هو مطالعة حياة اولئك الابطال الذين ظهروا في العالم كالنيرات تضيء على المتسكعين في ديجور الكفر والضلال فتقبل بهم الى نور الهداية والحق وترفعهم من عالم المادة الى اجواء الروح بحيث يشرق عليهم ذلك الاشعاع الالهي بما فيه من خير وحق وجمال فيهتفون مندهشين : « تمجد الله في قديسيه » .

اليك شعاعاً من ذلك الاشعاع الروحاني يغمر تلك النفس البارة ويسطع في كل مرحلة من مراحل حياتها البالغة ذروة الكمال ولما تتجاوز العقد الخامس من العمر .

نشأته

على منبسط من جبال لبنان الشمالي — قضاء البترون — تقوم قرية تسمى بيت كساب تابعة لقرية حردين المشهورة بحسن هوائها وصفاء سمائها ومائها وجودة اراضيها ، ونخوة ابنائها الذين عرفوا بطيب عنصرهم وكرم اخلاقهم وشديد تمسكهم باهداب الدين القويم . حردين الرابضة في سفح ذلك الجبل لا يقل علوها عن البحر عن الالف متر . تمتد عن جنبيها الاودية الكثيرة التعاريج وتحفرها التلال من كل ناحية وتطل على منطقتي الكورة والزاوية ، حيث ترى البنايات الفخمة والبيوت العديدة بين كروم الزيتون الفضة ، كانها جزيرة في وسط تلك البحيرة الخضراء الفسيحة الارجاء .

في تلك القرية الوادعة اطل طفل على الحياة في مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٨) ، من والدين فاضلين هما جرجس كساب ومريم وعد ، قد ارضعاه مع الحليب لبان التقوى والفضيلة . وما اصطبغ بماء العماد ، وأفرغ عليه اسم يوسف

حتى لبس ثوب النعمة ناصعاً واخذ ينمو بالقامة والحكمة امام الله والناس ، محاطاً بعناية والديه التقيين اللذين لم يدخرا وسعاً في تربيته التربية المسيحية الصحيحة باشرابه المبادئ القويمة والآداب السليمة بالقول والمثل. فشب الفتى على اساس البرّ والصلاح ومال بكل ما فيه الى حب الفضيلة ، تضرم قلبه نار المحبة الالهية فتنكب به عن لهو الصبيان اترابه وتدفعه الى ملازمة الهيكل على مثال الفتى صموئيل ، يدمن الصلاة ويحضر الذبيحة الالهية كل صباح .

واذ رأى فيه ابواه ميلاً شديداً واستعداداً حسناً الى القراءة ولم يكن في القرية مدرسة لتعليم الاحداث ، ارسلاه الى مدرسة الرهبان اللبنانيين التابعة لدير مار انطونيوس حوب قرب قصبة تنورين ، حيث اقام في بيت جدّه لامه . فانكب على درس مبادئ اللغتين العربية والسريانية وحقائق التعليم المسيحي مع بعض القواعد الحسابية ، كما كانت تسير عليه المدارس الابتدائية في تلك الايام. وكان من المتازين بين اقرانه. ولم يقصر همّهُ على تلقن القراءة والتمرين على الكتابة ، بل كان يأخذ عن اساتذته الرهبان الافاضل دروس الحياة الروحية النسكية راغباً فيها كل الرغبة .

وما تأهب واقدم على المناولة الاولى وحلّ جسد الرب في قلبه حتى ازداد اشتعالاً بنار المحبة للسيد المسيح سجين المحبة في سر الافخارستيا فاتخذه عريس نفسه لا ينفصل عنه مدى الحياة ، مترنماً بنشيد الاناشيد : « حبيبي لي وانا له » (٢ : ١٦) .

وكنت تراه ، وهو فتى ، يصرف الساعات بكاملها امام القربان المقدس ، يناجيه مناجاة الابن اباه ويكشف له مكنونات قلبه. وكان مثال التلميذ النشيط يطيع استاذه اطاعته اباه ويصافي رفقاءه ويحبهم محبته اخوته . وكانت نفسه النقية ، بعد ان تغذت خبز الحياة وطعام الملائكة ، تزداد يوماً فيوماً تعمقاً بمعرفة الله وانشغافاً بكمالاته تعالى بحيث يراها ماثلة لديه في المناظر الطبيعية البديعة : فما مرّ يوماً بتلك البقعة من الصرود اللبنانية الفاتنة الا انبسطت لديه تلك المشاهد الرائعة الجميلة : جبال شاهقة تتفجر من بطونها الينابيع العديدة ، تحيط كالهالة بتلك السهول الواسعة وتصب فيها الحياة والخصب وتغنيها بالمزروعات وتجعل منها بساتين وجنات غناء .

كان يوسف الفتى يمتع النظر بتلك المشاهد البديعة ويغرق فيها بما اوتي من عقل ثاقب ومخيلة نقية صافية وايمان حيّ ، فيتمثل صورة الله في مخلوقاته ، ترحي اليه الجبال عظمة الخالق وقدرته غير المتناهية ، والمياه الفياضة جودته تعالى . والاشجار والازهار على مجاري المياه والمزروعات الغضة تصور له جمال مبدعها . ومنها يرتفع بناظريه الى القبة الزرقاء وعالم الفضاء فيذهل من ذلك المنظر العجيب وما فيه من نظام بديع ويهتف مع النبي داود المرتل : « السماوات تذيع بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه (مزمور ١٨ : ٢) .

بمثل هذه الثقافة الشريفة السامية في باطنها وبذلك الاستعداد الحسن المبشر بما يكون هذا الصبي ، عاد يوسف الى بيت ابيه وانكبّ على مساعدة والديه بالاشغال البيتية مقدماً لها طاعة الابن البارّ لا يعرف تعباً ولا نصباً في ارضاء الله تعالى وابويه . واذا تراكمت عليه الاشغال وتصبب جبينه عرقاً ، ذكر الآية الكريمة : « بعرق جبينك تأكل خبزك » (تكوين ٣ : ١٩) . يباشر جميع اعماله بهذه النية والروح الطيبة ، لا يعرف للبطالة وقتاً .

ولم يكن يهمل شيئاً من واجباته الدينية كالصلاة وسماع القداس كل يوم ومناولة القربان الاقدس بتمام الورع والخشوع . يقهر جسده بالامساك وضبط الحواس قمعاً لاهواء النفس واميالها المنحرفة وكبحاً لتزق الشباب وجماحه . وكان في آدابه ونشاطه خير مثال للشبان ارفاقه الذين كانوا يرون فيه صديقاً حميماً ومرشداً حكيماً يقيهم عثرات الشبيبة البطرة ويقودهم بمقود العقل السليم المستنير بنور الايمان الى ما فيه خيرهم ونجاحهم .

وما ناهز العقد الثاني من العمر حتى تكشفت له الدنيا عن غرورها وأحيت نعمة الله في قلبه وذهنه تلك التذكارات الجميلة يوم كان فتياً دارساً على اساتذته الرهبان امثولة الفضيلة والتقوى ، فشاقه ما كان يراه فيهم من الامثلة الصالحة وروح الزهد والنشاط والاعتكاف على الصلاة والعمل وغير ذلك من ضروب التقشف والعبادة وممارسة التأمل والصمت ، مما جعله يصغي الى صوت الله يدوّي في قرارة نفسه : « ان اترك عشيرتك وبيت ابيك واحمل صليبك واتبعني » . فلم يتردد في تلبية صوت الدعوة هذا . وما لبث ان سار في طريقه وملاك الرب يرافقه ، حتى وصل الى دير مار انطونيوس قزحيا ، دير الابتداء ، الرابض في

سفح الوادي المقدس والمشهور بقدمه وبكونه مزاراً يؤمه الناس على اختلاف نحلهم ومذاهبهم لنيل نعمة او للاستشفاء من مرض . ولقد لُقِّبَ « قزحيا » اي كنز الحياة ، لما يجري الله فيه من الخوارق على يد القديس انطونيوس ابي الرهبان ، او لما يتدفق فيه ومن حوله من المياه الغزيرة الزاخرة الى تلك النعم والمواهب .

المبتدئ

الى هذا الدير وصل الشاب يوسف كساب صاحب الترجمة طالباً الدخول في الرهبانية . وكان في دير قزحيا آنذاك الرئيس العام الاب اغناطيوس بليبل[1] يقوم بزيارة قانونية ، ولما وقع نظره على هذا الشاب توسم فيه حسن الاستعداد ودلائل الرصانة والتقى ، فامر رئيس الدير وقتئذٍ الاب مكاريوس الشحروري بان يقبله . فامتثل الامر وادخله سلك المبتدئين في غرة تشرين الثاني السنة ١٨٢٨ . وهو في العقد الثاني من العمر . وحلّاه باسم « نعمة الله » ومنذ ذات الحين عرف بالاخ « نعمةالله الحرديني » . وكان اسمه مطابقاً مسمّاه وجاء خير فأل لما يكون منه في مستقبل الايام ، اذ غمرته النعمة الالهية منذ الصغر وما برحت تزداد وتنمو فيه حتى بلغت به اعلى ذرى الكمال والقداسة .

وليس يخاف ما في الابتداء من الصعوبات والمحن ولا سيما في ذلك العهد . على ان الابتداء في نظر القديسين ، كما ترسمه قوانين الرهبانية ، هو كور التجربة ، فيه يمحص المبتدئ كما يمحص المعدن في النار . او هو مدرسة الفضيلة فيها يتخرج الطالبون على خيرة الآباء فطنة وعلماً وتقىً ويسمون السمي الجدّي في تحصيل الفضائل المسيحية والرهبانية لتكون لهم عدة في المستقبل لبناء برج الكمال واصلاح ما فيهم من الشوائب ومكافحة ما يطرأ عليهم من التجارب .

(١) هو الذي ترأس على الرهبانية مدة سبعة مجامع اي ٢١ سنة متتالية بعد ان تولى رئاسة دير مار موسى الحبشي ودير مار انطونيوس قزحيا (١٧٩٩–١٨٠٥) وكان صديقاً حميماً للامير بشير الكبير حاكم البلاد وبهذه الصداقة تمكن من تأدية أجلّ الخدم للرهبانية ونصيرها وله يرجع الفضل في انشاء ديري مار سركيس وباخوس في قرطبا ومار مارون عنايا حيث ضريح خادم الله الاب شربل .

وما هي ايام وليال تنقضي حتى لمع نجم ذلك الطالب المبتدئ الجديد ، وظهر بما فيه من ارادة قوية ورغبة شديدة في اقتباس تلك الفضائل واضعاً نصب عينيه مثال السيد الاعلى ، مقتفياً آثاره في طريق الصليب ، راغباً في ان يزداد كفراناً بنفسه وتجرداً عن الدنيا ، وعلى مثال ابيه القديس انطونيوس كان كالنحلة التي تجني العسل من الازهار يجني ثمار الفضائل من مرشديه واخوته ، فلا يرى فضيلة في واحد منهم الا أكبّ على ممارستها واقتباسها . ولا تقع عينهُ على نقص إلا أغمض الطرف عنه . وكان بسلكه هذا ونشاطه في اقام واجباته ، قدوة لجميع اخوته المبتدئين . لا يرتاح قلبه الا في مناجاة الله ربه . اذا قام الرهبان للصلاة نصف الليل ، استمرّ ساهراً في الكنيسة حتى الصباح وكثيراً ما كان يحيي الليالي بجملتها امام القربان المقدس لا يفارقه الا بشق النفس ، وبعد ان تأمره الطاعة فيخرج من الكنيسة مرغماً متنهداً باكياً .

ولم يكن أدق منه في حفظ النظام ولا اسرع الى مباشرة الاشغال . يستحضر الله امامه عند كل عمل يتعاطاه روحياً كان او زمنياً . ولكثرة ما كان يمارسه من الاماتات الشاقة ، خشي الرئيس على صحته وعلى الاخوة الراغبين في الاقتداء به ، فأوقفه على حدّ بحيث يكون في مأمن من التعرض لخطر المرض ، فلم يرَ بدّاً من الاذعان للنصيحة ولامر الطاعة المقدسة .

على هذه الخطة المثلى اكمل الاخ نعمةالله سنتي التجربة ونال ثقة رؤسائه ومرشديه ومحبتهم له . فقدموه لابراز النذور الرهبانية بعد ان استعد لها برياضة روحية مدة ثمانية ايام كما تنص القوانين ، فابرز نذوره الاحتفالية في ١٤ تشرين الثاني السنة ١٨٣٠ وافرغ عليه الاكليم الملائكي رئيس دير قزحيا الاب مكاريوس الشحروري .

ولا تسل عما ناله من الفرح والابتهاج بعد ان قدم ذاته بالنذور محرقة كاملة لله ، موقناً انها معمودية ثانية غمرت نفسه بالنعمة وخولته حرية ابناء الله واعتقته من قيود المادة والمحبة الذاتية ، فاصبح كالنسر يحلّق في الاجواء الروحانية . لا همّ له الا بما عاهد الله به يحفظ المشورات الانجيلية بكل امانة ودقة ، عاقداً القلب على الكفران بالذات وحمل الصليب وراء الاله الفادي ، متغلباً على ما يعترضه من مصاعب وعقبات . يسير بقدم راسخة ونفس جريئة وعزم شديد

وايمان متين ، مرددا قول رسول الامم : « أما انا فحاشى لي ان افتخر الا بصليب ربنا يسوع المسيح الذي به صلب العالم لي وانا صلبت للعالم » . (غلاطية ٦ : ١٤) .

الراهب الدارس

أرسل الاخ نعمة الله بعد ابرازه نذوره الى دير مار قبريانوس قرب قرية كفيفان ، ليكون في صف الاخوة الرهبان الدارسين . ولم تكن المدرسة في ذلك العهد على دقتها ونظامها الحالي ، فان الرهبان الدارسين كانوا يتعاطون مع الدرس الاشغال اليدوية في الحقل كالحصاد ونقب الارض وتربية دود الحرير والقيام بجميع الخدم الديرية ، وممارسة الصلوات الفرضية في الخوروس حتى صلاة نصف الليل بوقتها مع الرتب البيعية . وبالرغم من ضيق الوقت كانوا يتقنون اللغتين العربية والسريانية ويدققون في علم اللاهوت الادبي ودرس بعض القضايا الهامة من اللاهوت النظري .

وقد تخرج في هذه المدرسة منذ افتتاحها (١٨٠٨ — ١٨٧٤) ، نحو مئتين وستين كاهناً اشتهر كثيرون منهم بعلمهم وقداسة سيرتهم كصاحب هذه الترجمة ورفيقه ، تلميذه الاب شربل مخلوف وغيرهما ممن أتوا بأجل الخدم والاعمال في الرهبانية والطائفة . ومن تلاميذ هذه المدرسة الاب انطونيوس الفغالي الذي اتقن اللغة العربية ووضع فيها بعض تآليف في فن العروض وارجوزة في المعاني والبيان وكتاب « ينبوع السلوان في زيارة القربان » ، لاجل الانفس المطهرية ، وقد جددنا طبعه (١٩٥٦) لما فيه من الصلوات الحارة والعواطف الشريفة[1] .

عرف الاخ نعمة الله ارادة رؤسائه في تعيينه بين مصاف الاخوة الاكليريكيين فانكب على الدرس والمطالعة بجل قلبه وحسن استعداده وكان الله تعالى ينير عقله وفهمه فتسهل لديه كل صعوبة في تحصيل العلوم وبخاصة

---

١) وله ايضاً معجم في اللغة العامية . وكان يرجى منه الشيء الكثير لما تحلى به من مواهب نادرة واخلاق كريمة كما يشهد له اساتذته وبينهم الاب نعمة الله الكفري الذي كان معجباً به آسفاً شديد الاسف على فقده اذ فاجأته المنية ولم يتم العقد الثالث من العمر (٢٦ سنة) .

العلوم اللاهوتية التي امتاز فيها حتى كان يقصده الاخوة الدارسون لحل بعض مشاكلها. يطرحون عليه الاسئلة مهما كانت صعوبتها، فيجيب عليها بكل وداعة ورصانة واذا حمي وطيس الجدال في قضية، كان يبادر اخاه، كما يفرض القانون، بكلمة «اغفر لي» وعندها يحسم كل جدال. وكانت ترنّ في اذنيه آية الرسول: «العلم ينفخ والود يبني» (كور ١-٨: ١) فينبذ بعيدًا كل فكر عجب وكبرياء، ولم يكن ليكتفي بركم مواد التعليم في ذهنه فقط، بل يعمد الى تثقيف العقل والقلب والارادة فيصهرها في قالب الكمال الانجيلي، عالمًا ان تلك هي الثقافة الصحيحة التي بها تبنى الشخصية الانسانية والقداسة الحقة وبها تستقيم الاحكام في الاشياء والاشخاص، ويرقى الانسان مراقي النجاح والفلاح. وقد وضع نصب عينيه هدفًا واحدًا لا يحيد عنه قيد شعرة، هو محبة الله والقريب في الله، موقنًا أنّ كل كمال وخير انما مصدره الله وحده اصل كل علم وحكمة. فاخذ يبالغ في حفظ القوانين والفرائض الرهبانية، حتى كاد يؤدي به التدقيق فيها الى المرض والوسواس.

فظن الرؤساء انه في حالته هذه لا يقوى على متابعة الدروس اللازمة للكهنوت. فأمروا بفصله عن الاخوة الدارسين وارساله الى دير مار موسى الحبشي في المتن. فامتثل الامر حالًا معتقدًا ان هذه ارادة الله فيه. ما همّه ان يكون في الرهبانية كاهنا او راهبًا اخًا بسيطًا، بل حصر كل همه في ارضاء الله تعالى وتقديس نفسه. حسبه ان يصل الى غايته هذه باحدى الطريقتين كما يريده الله. فسار الى دير مار موسى حيث وجد متّسعًا من الوقت للاستغراق في بحر المحبة الالهية وما لبث مدة حتى اخذ يزيد في ضروب التقشف والاماتات والدقة في حفظ القوانين والقيام بجميع ما يكلّف به من الخدم الديرية، فادهش الناظرين اليه من رهبان وعالمين، فاعجبوا بما كانوا يرون في هذا الراهب الشاب من سمو الفضائل وجليل المناقب. فاحبه الجميع واتخذوه قدوة لهم في القداسة والكمال المسيحي.

لا يبعد ان تكون شهرةُ تقواه وقداسته هذه، مدة اقامته في دير مار موسى، قد تركت ذكرًا طيبًا واثرًا عميقًا في قلوب من عرفه او سمع به في جهة المتن من المجاورين والبعيدين، حتى شاءت العناية ان تخص تلك الناحية من

جبل لبنان بأولى وابهر معجزة اتاها الله عن يد صفيه هذا بعد وفاته ، كما سنرى.

لذلك كنا وما زلنا نرى الكثيرين من جهات المتن ، ممن نالوا الاشفية العجيبة بواسطته ، يؤمون دير مار قبريانوس كفيفان لايفا. تذورهم ولزيارة ضريحه والتبرك بجثمانه واخذ شيء من آثاره .

على ان العناية الالهية نفسها التي جعل كل اتكاله عليها ، كانت ترعاه بعينها الساهرة ، وتسنده بذراعها القديرة ، مُعِدة اياه لامر خطير ، فأوجبت على الرؤساء ارجاعه الى دير كفيفان لاستئناف دروسه تحقيقاً لما يعلق عليه من الآمال نظراً لحسن سلوكه واستعداده العلمي ، وتفوقه على رفاقه الذين هللوا لرجوعه اليهم ، لما كانوا يستفيدون منه فضيلة وعلماً .

عاد الاخ نعمة الله الى ما كان عليه من نشاط ودقة في القيام بجميع واجباته الرهبانية والمدرسية . وكان يتعاطى فوق عمله العقلي ، مهنة الخياطة وترتيب ثياب الاخوة وتوزيعها وغير ذلك من الخدم ، سالكاً مسلك الراهب الصالح الذي لا هم له سوى ارضاء الله وبه يحفظ نذوره ، عالماً ان جوهر حياة الراهب وكيان الرهبانية نفسها قائم بحفظ النذور الثلاثة : الطاعة والعفة والفقر الاختياري التي هي اشبه بثلاث حلقات متماسكة بعضها ببعض بحيث يكون انفكاك احداها سبباً لانفكاك غيرها ، ولذلك يحذرنا الحكيم بقوله : « أن لا تنذر خير من ان تنذر ولا توفي » (الجامعة ٥ : ٣) .

رسخت هذه الآية في ذهنه ، فقام بايفاء نذوره على اكمل وجه جاعلاً مثاله الاعلى يسوع المسيح مصدر جميع الكمالات ، القائل : « انا الطريق والحق والحياة » (يوحنا ١٤ : ٦) ، فلا طريق اذن الى الكمال ولا هداية الى الحق ولا حياة مسيحية ورهبانية ، إلا بالاتحاد به تعالى اتحاد الغصن بالكرمة ، كما صرح بقوله عز وجل : « انا الكرمة وانتم الاغصان من يثبت فيَّ وانا فيه يأتي بثمر كثير لانكم بدوني لا تستطيعون ان تعملوا شيئاً » (يوحنا ١٥ : ٥) . على هذه الآية الكريمة جعل الاخ نعمة الله دستور حياته ومحور جميع اعماله مقتدياً برسول الامم القائل : « ان حياتي هي المسيح . . . (فيليبي ١ : ٢١) . انا حي لا انا ، انما المسيح هو الحي فيَّ (غلاطية ٢ : ٢٠) رأى المسيح طائعاً حتى الموت فمات تنازله عن ارادته الذاتية مستلماً لارادة الله التي كان يعتبرها

مجسمة لديه بارادة الرئيس. اذا دعته لامر او لعمل، سمع صوت الله يناديه ونظر الى الرئيس نظره الى شخص المسيح كما يفرضه القانون. وكان يؤثر المرؤوسية على الرئاسة شاعرًا بما عليها من عظم المسؤولية. لذلك لم يكن يقبل وظيفة الا اذا انتدبته السلطة مباشرة، او بطريق الانتخاب القانوني، كما وقع له ان انتخب ثلاث مرات لوظيفة المدبرية.

ولم تكن الوظيفة في نظره سوى خدمة في جنب المصلحة العامة لاجل فائدة الجمهور، كان يقوم بها بمنتهى التفاني والاخلاص كما شهد بذلك كل من عرفه مديرًا واستاذًا للمدرسة الرهبانية في دير كفيفان مدة ست سنوات كان فيها مثال المثقف والمربي الحكيم يبعث في عقول تلاميذه، مع العلم روح الفضيلة والتحلي بالتقوى الصحيحة، والرغبة في احترام السلطة التي هي من الله، مشوقًا اليهم الصعود في درجات الكمال درجة درجة، يرشدهم بنصائحه الابوية، ويقودهم بمثله الصالح، ويمكن القول: انه كان لهم ولغيرهم في الرهبانية، قانونًا حيًا في حفظ النظام الديري، موقنًا ان السير بحسب النظام على ما توجبه الفرائض، هو اقوى سلاح لمكافحة البطالة امّ الرذائل، وأضمن وسيلة للسلوك بروح الطاعة المقدسة.

اما عفافه، فحدث عنه ولا حرج. لقد تسامى بهذه الفضيلة، الى حد انه كان فيما اشبه بالملاك منه بالانسان اللابس الجسد الضعيف. وبما انه كان بمزاجه العصبي معرّضًا لكثرة التجارب، اعتصم بنعمة الله واخذ يروّض ما فيه من الاميال والشهوات الطبيعية ليقيم من جسده هيكلًا للروح القدس عاملًا بقول الرسول: « اقمع جسدي واستعبده لئلا ارذل انا الذي بشرت آخرين » (١ كور ٩: ٢٧).

ومما يروى عنه انه لما كان في دير قزحيا جاء الدير زائرًا احد علماء النفس العارفين بالفراسة. واذ وقع نظره على الحرديني وتفرّس فيه قال لاحد الرهبان: « كيف يمكنكم ان تقبلوا بينكم هذا الرجل الشهواني؟ » فاجابه الراهب: « ماذا تقول، انه لقديس عظيم نقتدي بفضيلته وطهارته » فاردف السائل معجبًا: « ان كان كذلك فهو حقًا اعظم مكافح، لاجم جماح الحيوانية في الطبيعة البشرية ».

ان مزاجه العصبي كان يميل به ويعرّضه الى أشد التجارب، ويزجه في ثوران

الشهوة ، فيشعر بداخله شعور القديس بولس ، بان فيه سنّة تناقض سنّة ضميره فالخير الذي يريده لا يعمله ، والشر الذي يأباه ، يرى نفسه مائلة اليه (رومية ٧ : ١٥ و ٢١) فيصرخ مع الرسول القائل « من ينقذني من جسد الموت هذا ». لذلك كنت تراه يبالغ في قمع الجسد الى حدّ غير مألوف ، ممارساً جميع انواع الاماتات ، جاعلاً من اسكيمه لثاماً او حجاباً على عينيه حتى لا ينظر الى امرأة ، او الى فتى امرد ، مردداً قول ايوب البار : « عاهدت عينيّ ان لا افطن في عذراء » (ايوب ٣١ : ١) بل اذا صودف ان رأى في طريقه ما يعرّضه للتجربة ، تحوّل عن الطريق فراراً من السبب . وكان البعض يعدّون تصرفه هذا ضرباً من الجنون او المغالاة والوسواس . ولم يكن ذلك منه ، الا حفاظاً على زنبقة طهارته ودرتها الثمينة فلا تمس باذى .

وما ذلك الا لما كان يحس به من حدّة الشهوة وثورانها . ولا عجب في الامر . فان القديسين أرقّ الناس شعوراً ، ولا حدّ لعطفهم وعاطفتهم وشديد رغبتهم في محبة الله والقريب. وهم في معارك الطهارة يكافحون مكافحة الابطال ، مدججين بسلاح النعمة الالهية وترس الايمان وعزم الارادة القوية ، لتكون النفس سيّدة لا عبدة رقّ للجسد. ويبقى مثالها الاعلى ما هو فوق الطبيعة ، تنزع اليه وترغب فيه. وبما ان الطبيعة نفسها هي مدخل النعمة ومقرّها ، تكمل وتتجمل وترقى بتأثير الروح القدس الحال فيها ، دون ان تفقد شيئاً من كيانها الطبيعي وفاعليتها ، لذلك لم تكن النعمة لتطفىء. فينا نيران الشهوات ، بل انها تروّض جماحها ، وتحسن تنظيمها بلطف ، مقدمة لها غذاء اسمى واشرف. على ان الشهوة قوة وشيء حسن بذاتها ، شرط ان تعدّل وتنظم. لذا قيل بصواب: « لا اقوى من الشهوة في العابدين المغرمين بحب الله تعالى وما من قلوب اطيب فطرةً واشد حباً وحرارة من قلوب القديسين » . وان كانت المحبة في اعماق جميع الشهوات ، كما تعلّم الفلسفة ، وهي تعبّر وتفصح عنها ، فهلّا تكون ديانة يسوع المسيح اقوى ضمين ومهذّب للشهوات . وهي ديانة المحبة الصادقة والمتفانية في عمل البر والصلاح ؟

على هذه الخطة الشريفة سار رجل الله الحرديني في ترويض ما كان يتنازعه من الشهوات الجسدية بعد ان صبّها في قالب الامانة ، واحكم قيدها بالنظام

والقانون ، موجهاً بها الى هدف سام فوق الطبيعة ، مستفيضاً من اللذة الجسدية ، بلذة سماوية سامية ، اليها ترتاح نفسه ، وعندها يسكن ضميره ، ونحوها يصرخ مع الملك والنبي داود : « من يعطيني جناحي الحمامة لاطير واستريح (مزمور ٥٤ : ٧) . لقد جعل كل راحته ولذته في يسوع حبيبه ، الاله المتأنس ، فادي البشرية ، وحبيب القلوب ، وموضوع كل حب وكمال وجمال . وهل من جمال او كمال او غبطة يسكن عندها القلب البشري مثل هذا المثال الاسمى ، ولهذا كان رجل الله مستغرقاً في هذا الخضم ، ولا يلذه سوى التمتع بذلك الجمال والكمال الالهي الباهر . بذلك تظهر روحانيته بوجه اخص . وقد آلى على نفسه الا يميل بقلبه الى محبة خليقة الا في ذلك الجوّ الصافي النقي ، فتحصن في ديره واحاط زنبقة طهارته بسياج اشواك الاماتة والتقشف لتبقى ناصعة البياض نضرة ، موقناً أن جسده انما هو هيكل الروح القدس يحفظه شريفاً نظيفاً . ولما علم ان تلك الزنبقة الجميلة لا تعيش الا في تربة التواضع ، وفي جوّ الاماتة ، غذاؤها الصلاة والعمل ، أخذ بممارسة هذه الفضائل على الوجه الاكمل .

درس على معلمه الالهي ، وهو التلميذ الحكيم العاقل ، هذه الامثولة الشريفة : « تعلموا مني اني وديع ومتواضع القلب » (متى ١١ : ٢٩) ، فاقام بناية كماله على صخرة الوداعة والتواضع المسيحي . وعرف انّ بناية الكمال لا تقوم شامخة ثابتة الا على هذا الاساس المتين الذي هو ميزة الديانة المسيحية ومصدر جميع الفضائل واصلها . الطهارة الملائكية ، ذاكراً ما قاله القديس برنردس في كلامه عن العذراء مريم : « ان البتولية والتواضع فيها صنوان . كانت نفسها مرضية لله الذي جعل مسرّته فيها ، لان تواضعها اقام وزناً لطهارتها والبتولية تاج الاتضاع وزينته . لست اتورّع عن القول بأنه لولا التواضع ، لما سُرّ الله بطهارة مريم نفسها ، ولو لم تكن مريم متواضعة ، لما اصبحت مستودعاً للروح القدس ، ولو لم يحل فيها ، لما حبلت بالكلمة الالهي . فاتضح اذن انها قبل ان تحبل من الروح القدس ، كما جاهرت هي نفسها : « نظر الله الى تواضع امته » (لوقا ١ : ٤٨) اكثر من نظره الى بتوليتها ، فان ارضت الله بطهارتها ، فهي مع ذلك قد حبلت بتواضعها . والحقيقة اذن ان الله يسرّ بطهارتها ، لاجل تواضعها . القديس برنردس عظته الاولى في التجسد . على ان التواضع لا يعني خسة النفس والجبانة ،

خادم الله نعمة الله الحرديني يصلي

ضريح خادم الله نعمة الله الحرديني

فالمتواضع الحقيقي ، وان أقرّ بعجزه امام العظمة الالهية وسلك مع القريب مسلك الانس واللطف والوداعة وكان حليماً رؤوفاً ، فهو مع ذلك كبير النفس أبيُّها ، جريٌ لا يلوي عن احقاق الحق والجهر بالفضيلة ومقت الرذيلة . على هذه القاعدة سار رجل الله الحرديني بتواضعه ووداعته مع الجميع . وبالرغم مما كان عليه من مزاج عصبي وأنفة في الطبع ولا سيما مما يعرّض فضيلته الى ادنى عطب او مساس ، فقد عرف ان يذلّل بحكمة التواضع جماح طباعه ويصبّها في قالب الحمل الالهي الذبيح ويقيم من ذاته حملاً وديعاً لا يماحك ولا يصيح ، يلاطف الاخوة جميعهم ويعدّ نفسه بينهم آخر الجميع ، راضياً بالاحتقار والاهانة اقتداء بالسيد المسيح القائل : « ليس تلميذ افضل من معلمه ولا عبدٌ من سيده » (متى ١٠ : ٢٤) . وفي تقلده الرئاسة كان يزيد في وداعته وتواضعه ، مُضيّقاً على نفسه متساهلاً مع مرؤوسيه متى دعت الظروف ، شرط التقيّد بما تفرضه القوانين ، عاملاً بقول الحكيم : « اذا جعلوك رئيساً فلا تتكبّر بل كن بينهم كواحد منهم » (سي ٣٢ : ١) .

اما اماتته فلم يكن لها انقطاع ، ولم يكتفِ بالصوم الدائم ولبس المسح وغير ذلك من ضروب الاماتة الخارجية فقط ، بل كان يتعمّد الاماتة الباطنة ايضاً ، مضحياً بارادته واحكامه الذاتية ، مستسلماً لارادة الله في كل حال : في الحياة والموت في الصحة والمرض على السواء . يخوض غمار المعامع والبلايا جندياً باسلاً لا يهاب ولا يجزع فيخرج من المعارك ظافراً .

كلّفه مرة المثلث الرحمة البطريرك بولس مسعد بفضّ خلاف في تنورين ، فنزل في دار الشيخ فارس طربيه واضطرّ بوقته ان يغسل بيده المسح الذي كان يلبسه ، فعلم صاحب الدار بذلك وقدّره قدره ، فرجاه رجل الله بكتمان السرّ . وكان معتصماً بفضيلة الصبر في جهاده وامراضه المسببة عن مكثه الطويل في بيت الله وامساكه عن الطعام وتحمل البرد القارس في الشتاء ، ما عدا توارض الكلام من بعض الثقلاء المستخفين بطريقته . قيل ان شقيقه الاب الياشع حبيس دير مار مارون عنايا ، كان يلح عليه ويدعوه الى دخول الحبسة ليكون واياه في سلام وطمأنينة ، فيجيبه قائلاً : « يجب ان نعيش بين جمهور الاخوة في الاديار ونحتمل بصبر وثبات ، ما يلحقنا من الهزء والاحتقار . بهذا يزداد اجرنا وتكثر

عن آثامنا ونعمل بقول الرب من يصبر الى المنتهى يخلص » (متى ٢٤ : ١٣) وبصبركم تقتنون نفوسكم (لوقا ٢١ : ١٩) .

رجل الصلاة والتأمل

لقد أصغى رجل الله الى آية الحكيم الذهبية : « لما علمت باني لا اكون عفيفاً ان لم يهبني الله العفة ، توجهت الى الله وسألته من كل قلبي » (حكمة ٨ : ٢١). فصوناً لطهارته الممتازة كان يصل ليله بنهاره في الصلاة الى الله والتعبد لامه العذراء . كنت تراه يرتفع بقلبه وعقله الى العلاء نافذاً حجب الغيوم وعالم النجوم ، ضارعاً الى العلي ليسند ضعفه في الحرب الروحية ، فيهتف مع المرنم : « اليك رفعت عيني يا ساكن السماوات ! .. كما ان عيني الامة الى يد سيدتها كذلك عيوننا الى الرب الهنا ... » (مزمور ١٢٢ : ١ و ٢) . وهي الطلبة التي يتلوها الكاهن كل يوم في القداس قبل رفعة الكأس .

وكان كالنسر يحلق في سماء القداسة بجناحي الصلاة اللفظية والعقلية مستغرقاً في اوقيانوس العزة الالهية ، متعمقاً بحقائق الديانة المسيحية وعواقب الانسان الاربع فتصغر في عينه الدنيا وما فيها من اباطيل ، فيزداد اتحاداً بالله وينال من جودته تعالى جميع النعم اللازمة للقيام بواجباته الرهبانية والكهنوتية لحق القيام ، على الرغم مما كان فيه من ضعف وهزال مسبب عن مرض المعدة الدائم . وفضلاً عما كان يمارسه من صلوات فردية ، كان لا ينقطع عن مشاركة الجمهور في صلوات الخورس حتى في نصف الليل ، كما كانت العادة في الرهبانية . ويمكن القول بان خلاصة حياته كانت سلسلة صلوات متواصلة الحلقات . اذا دخل المعبد اشرق محياه مسرة وغبطة وغاص في بحر التأمل بالرب . ينوع حبيبه في سر القربان الاقدس يصرف امامه الساعات الطوال ومن ينبوعه الفياض يستقي جميع الفضائل ولا سيما التواضع والصبر والفقر بالروح الذي امتاز به كما تفوق بطاعته وعفافه . كان الفقر أليفه وسميره ، لا يعلق بشيء من حطام الدنيا ولا يختار لنفسه من كسوة وقوت وفراش الا الادنى في الدير ، شرط ان يكون نظيفاً على مثال القديس برنردوس الذي كان يرضى بالثوب المرقع النظيف . واذا انتقل من دير الى دير آخر لا يأخذ معه حتى قلماً من قصب للكتابة دون اذن الرئيس ،

كما حدث له مرة بعد خروجه من دير قزحيا. وما وصل ليده شيء من صدقات المحسنين، او حصّل بتعبه شيئاً الا سلّمه الى وكيل الخرج في الدير. ومن دخل قليته رأى البساطة والفقر سائدين فيها .

ورغماً عمّا كان عليه من مرض المعدة، استمر محافظاً على العيشة المشتركة فلا يتناول من الطعام الا ما كان معدّاً لجمهور الدير . وكثيراً ما كان يتناوله بارداً اذ كان يصوم باذن الرؤساء، حتى الظهر وكان الرهبان قديماً لا يتناولون سوى وقعتين في النهار اي الساعة العاشرة قبل الظهر والخامسة بعده .

وكان مبالغاً في تجرده عن الاهل والانسباء. منصرفاً الى خدمة ربه ورهبانيته ولم يدخل بيت والديه، مدة حياته الرهبانية، سوى مرة واحدة وكان رفيقه الاب نعمة الله الكفري . وقريته حردين لا تبعد كثيراً عن دير سكناه مار قبريانوس كفيفان . كانت والدته قدمت له منديل يد، فلم يحتفظ به بل دفعه الى رفيقه، كي لا يكون بين يديه ما يحمله على التفكر بالاهل والبيت — وقد مارس هذا التجرد التام عن العالم، أخذاً بقول صاحب الاقتداء : « كلما سرت الى الناس، عدت من بينهم اقلَّ ما كنت عليه من انسانية » (الاقتداء سفر اول فصل ٢٠) . وكان يقول : « الراهب في ديره ملك في قصره، دولته رهبانيته وجنوده اخوته الرهبان ومجده فضيلته وقداسته وتاجه تواضعه وطهارته وبرفيره فقره وطاعته » . . . أكرم بها من حِكَم سامية واقوالٍ عسجدية املاها عليه الروح القدس الحالّ فيه . فهنيئاً لمن يفكر فيها ويعمل بها !

الكاهن

بعد ان اكمل الاخ نعمة الله درس اللاهوت وأدّى عنه فحصاً نال به ثناء فاحصيه، ارتقى درجة الكهنوت المقدسة في ٢٥ كانون الاول (١٨٣٣)، عيد ميلاد الرب بالجسد فكان ذلك اسعد فألٍ لولادته الكهنوتية وله من العمر خمس وعشرون سنة. وتم ذلك بوضع يد المطران سمعان زوين النائب البطريركي على عهد المثلث الرحمة البطريرك يوسف الحبيشي (١٨٢٣—١٨٤٥) .

١٠ رقي الدرجة المقدسة حتى أخذ يزداد ارتقاء في سلم الكمال والقداسة ، عالماً ان سمو هذه الدرجة التي تزدحم تحتها مناكب الملائكة ، تستلزم الارتقاء والتقدم في الفضيلة . وانه لو لم تنتدبه السلطة لها لما اقدم عليها ، بل آثر ان يكون في مصاف الرهبان الاخوة مكتفياً بحظ مرتا لانه اتى الرهبانية ليَخدم لا ليُخدم ولما لم يكن له مجال فسيح ليقوم بكل ما تقتضيه الغيرة الكهنوتية ، اقتصر ، بحسب حالته وطريقته ، على تكميل نفسه والجماعة التي كان يتيم بينهم ، بل كان بمثله الصالح وشهرة قداسته رسولاً يبشر بالمسيح كل من عرفه او سمع بسيرته في جميع انحاء الجبل . وكم كان يتمنى لو اراده الله ان يكون شهيداً يسفك دمه في حب المسيح .

وقد علم ان الذبيحة الالهية التي يقدمها كل يوم انما هي ذبيحة الصليب الدموية التي قدمها الفادي الالهي على جبل الجلجلة لما فيها من الثمار والمفاعيل غير المتناهية ، فلم يكن يقدم عليها إلا بعد ان يستعد لها الاستعداد الذي تستحقه . يقوم نصف الليل الى تلاوة صلاة الفرض على الخورس مع الجمهور كما أسلفنا ، ثم يحضر جميع قداديس اخوته الآباء الكهنة ، ويصرف ساعات امام القربان المقدس بالتأمل والقراءة الروحية ، ثم يعترف بخطاياه ، ولو لم يكن عليه مادة ضرورية ، لانه يعتبر ان الاعتراف فعل اتضاع عميق يسرّ به الله تعالى ، وبه يمارس المعترف افعال الفضائل الالهية : الايمان والرجاء والمحبة . وقد اتخذها خطة سار عليها مدة حياته الكهنوتية . واذا تبرّم مرشده من سماع اعترافه كل يوم ، كان يقف امامه متذللاً باكياً ليسمح ويسمع له .

كنت تخاله وهو على المذبح ، منخطف الروح . عقله وقلبه في الحمل الذبيح بين يديه . تلوح على جبينه امارات الفرح والخشوع . وتمر الساعة وهو على حرارة ايمانه الحيّ ومحبته ليسوع القربان والمقرب الاول ، فلا يدانيه فتور او ملل . واذا انتهى من القداس صرف ما بقي من الوقت بالشكران يناجي ضيفه الكريم باصدق عواطف الحب مردداً افعال السجود والشكر والتكفير والطلب ثمار الذبيحة الالهية . وقد لازم خطته هذه مدة كهنوته خمساً وعشرين سنة

ما كان يهمل اعمال الغيرة على خلاص النفوس ، رغم رغبته في العزلة والانحباس في الدير . فانه كان يسعى في تنشيط الجميع الى عبادة الله عبادة

صحيحة ، ناقضين عنهم غبار الفتور والتواني . متمسكين بالتقوى الحسنة والقيام بالواجب حفاظاً على نفوسهم المشتراة بدم المسيح . وكلما سنحت له فرصة ومكنته الظروف كان يجمع السذج والاولاد ويشربهم روح الفضيلة ويلقنهم قواعد الدين بالتعليم المسيحي ويهديهم طريق الخلاص .

ومن آثار غيرته في نشر عبادة قلب يسوع الاقدس ، تحريضه الجميع على الاشتراك فيها ، ناشراً اياها في الاديار بين اخوته الرهبان وفي الخارج بين العلمانيين وهي العبادة التي كانت تدفعه الى التعبد لسر القربان الاقدس ، وتوجيه جميع عواطف قلبه واشواقه اليه ، والسجود امامه ليل نهار ، كما ذكرنا . ومن تعبده لقلب يسوع الاقدس حصل على فضيلة الاتحاد العجيب بالله تعالى اتحاداً لم تصدّه عنه الاشغال الزمنية أية كانت بحيث كان ينوي توجيهها لمجد الله عزّ وجل . فمَن رأى سكونه وصمته وسمع تنهداته وزفراته ، عرف في الحال ان قلبه وفكره في السماء . ولهذا كان متفرداً في اتقان الحياة الباطنية .

اكرامه وعبادته لسيدتنا مريم العذراء

لما علم ان مريم العذراء ام الحمل الالهي هي ام الاطهار وشفيعتهم وانها الطريق السوي المؤدي الى الاتحاد بابنها يسوع المسيح ، أخذ يجدّ في طلب شفاعتها ويبالغ في اكرامها وكانت محبته لها دونها محبة الابن لامه . لم يفتر من التحدث بذكرها والتلفظ باسمها الكريم . ومتى دهمته تجربة ، هرع اليها طالباً شفاعتها ، صارخاً : « يا عذراء ساعديني » . ولم ينفك عن الشخوص الى ايقوناتها المقدسة ، متنفساً الصعداء كأنه يود الخروج من الجسد ليرتع برؤيتها السعيدة في دار الخلود . وما دخل قلّيته مرةً او خرج منها ، الا جثا امام ايقونتها المعلقة في الحائط وحياها بالسلام ، مكبراً فيها ، على الخصوص ، الحبل بها البريء من الدنس ، حتى قبل تحديد هذه العقيدة . فاحبت البتول ان تجازيه على اكرامه هذا بان نقلته اليها أثر الاحتفال بعيد الحبل بها بريئة من وصمة الخطيئة الاصلية . وكان يخصّ الكثيرين على عبادتها ولا سيما على الاشتراك في اخوية قلبها الاقدس واخوية الحبل بلا دنس .

وقد انشأ هذه الاخويات في اديرة الرهبانية بموجب الاذن المعطى له . يتلو ورديتها كل يوم، منفردا او مع رفيق يساعده ويغوص في التأمل باسرارها. ولم يهمل الاشتراك في ثوب سيدة الكرمل ويرغب كل الرغبة في مطالعة كتاب « أمجاد مريم » للقديس ليكوري، جاعلًا اياه سميره يذوق بمطالعته طعم العسل ويضعه قرب وسادته ليل نهار . وكثيرًا ما كان يردد هذه العبارة التي لازمته حتى النفس الاخير : « فليكن مباركًا الحبل بسيدتنا مريم العذراء البريء من دنس الخطيئة الاصلية ». مشيرًا باقوال اعاظم القديسين، كالقديس فرام: « انت بريئة من العيب خالية من الدنس، منزهة عن وصمة اية خطيئة على الاطلاق. ان نورك ابهى من الشمس والقمر وكواكب الرقيع، لان انوار هذه تغرب، أما نورك فهو مشرق الى الابد . انتِ اعلى من السماء واسمى من الكاروبيم وارفع من السارافيم . كل اتكالنا عليكِ، ايتها الكلية نقاوتها » . وقوله المشهور : « فلتصرخ عظامي من القبر ان مريم هي والدة الاله، وان خامرني ريب في ذلك فلتلتهم النيران عظامي » .

والقديس ايرونيموس : « لو تحولت اعضاؤنا جميعها الى السنة، لما امكننا ان نفيها حقها من المديح. فاني مهما قلت فيك ابقى مقصرًا، ان قلت انك اعلى من السماء وانك ام القبائل وسلطانة الملائكة وصورة الله، فتلك القاب قاصر عن مدحك » .

بمثل هذه المدائح اللذيذة كان يتغنى ذلك الموسيقار الروحاني، معلناً عظم محبته وتعلقه الشديد بامه البتول الكلية القداسة، يتمثلها كما ظهرت ليوحنا الحبيب، ملتحفةً بالشمس تحت قدميها القمر وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً » (رؤيا ١٢ : ١). واكراماً لها لم يكن يقتات ايام السبوت وبيرموناد اعيادها وفي الشهر المريمي بكامله، الا بالزيت والملح وبعض البقول . وكانت هذه الام الرؤوم تشدده في جهاده وتعزيه في محنه وامراضه وتنصره في معارك الطهارة وفي جميع ما ينتابه من التجارب .

المدبر والرئيس

لقد شاء الله ان يلقي على عاتق خادمه مسؤولية الرئاسة والمدبرية ، اذ اراده ان يكون السراج المضيء على منارة ليرى الجميع نوره . فانه ، رغم فراره من الوظيفة ، أبى عليه اخوته الرهبان الا ان ينتخبوه مدبراً في ثلاثة مجامع اي مدة تسع سنوات لكي يرتشدوا بآرائه ويجعلوه مثلاً حياً امامهم . فلم يرَ بدّاً من الانصياع لامر الله المنفذ اليه بامر الطاعة المقدسة ، سائلاً الرب نعمة خاصة للقيام باعباء الوظيفة . ومما ساعده على قبولها كونها وسيلة لانعاش روح الكمال والمحبة بين اخوته ، كما كانوا يرغبون ، لما يرون فيه من الغيرة على حفظ النظام والمفاداة في سبيل المصلحة الرهبانية .

على انه بتواضعه كان يفرّ من كل ثناء ومديح بشري . واذا خاطبه احد بامر الرئاسة العامة وانه سينتخب لها لما يُرجى منه من الخير والنجاح للرهبانية ، امتعض وقال : « الموت ولا الوظيفة » ، لشعوره بتبعاتها الجسام . واذا قيل له ان الله يريده لاجل خير الرهبانية ، اجاب : « كلا ... مشيئته تعالى وارادة والدته الطوباوية ، ان لا اصير رئيساً » . وان قالوا له : كيف تعلم ذلك ؟ اجاب على الفور : « ان البتول مريم قالت لي » .

وما كان ينظر الى ما في الوظيفة من شرف ... بل الى انها خدمة بمعناها الصحيح ، يؤديها بكل ما فيه من غيرة ونشاط وامانة . يبدي رأيه بما توحيه اليه الحكمة الالهية ويسير بجميع تصرفاته بحسب نص القوانين من دون محاباة ومراعاة ، متنزهاً عن كل غرض وميل بشري ؛ هدفه واحد لا يحيد عنه : « الله والرهبانية » . يعمل بالمساواة بين الجميع ويغار على خير مرؤوسيه بروح المحبة والفطنة .

على هذه الخطة سار في السنوات ... التي تقلد فيها رئاسة دير مار قبريانوس كفيفان وادارة المدرسة الرهبانية فيه ، يعنى بتهذيب النشء الرهباني على سنن الفضيلة والعلم الصحيح . محرضاً تلاميذه على الجد والنشاط والاخلاص بحق ربهم ورهبانيتهم ، ويسير امامهم منكباً على المطالعة والدرس ولا سيما

اللاهوت الادبي الذي امتاز فيه كما مهر بالحياة الروحية مستنيرًا بالهام الروح القدس . لا ينى عن بذل النصح لتلاميذه بان يقرنوا العلم بالفضيلة الراسخة والا كان وبالًا على صاحبه وعلى الرهبانية والكنيسة كما يثبته التاريخ — ويوصي الجميع بالمحافظة على الوقت الثمين وبمكافحة البطالة مصيدة ابليس . ولم يكن هو نفسه يدع برهة تمرّ من دون عمل . فكنت تراه اذا انتهى من الصلاة والمطالعة ، هرع الى القيام ببعض الخدم الديرية المفيدة. وكان قد اتقن مهنة تجليد الكتب ، يقوم بها حتى وهو في وظيفة المدبرية. وما يحصله منها يقدمه للرئيس ليصرف في مصلحة الجمهور . وبما انه كان يعظ بمثله اكثر من كلامه ، فينقاد اليه المرؤوسون بملء الرضى والاختيار .

وما عتم ان طارت سمعة تقواه في البلاد وانتشرت قداسة سيرته انتشار أريج البنفسجة المختبئة. فتنسم شذاها جماهير الرهبان ، كما شدا بذكرها العالميون في اكثر الانحاء. حتى كان يضرب بها المثل ليس عند الرهبان فحسب ، بل عند العامة ايضاً ؛ فكانوا ، اذا ارادوا تبيان فضيلة احدهم ، قالوا : « انه مثل الحرديني » .

ولا عجب بعد هذه السيرة الملائكية ان يكون الله علّام الخفايا ، قد أشرك صفيّه هذا في شيء من معرفة الغيب والعلم بما كان وشيك الوقوع من حوادث الايام والمخاطر كما رواه المشاهدون ومنهم الاب نعمة الله الكفري الذي عايشه وسبر غوره ووضع الاساس لترجمته[1] وهو ثقة في ما رواه لما تحلّى به من تقوى راسخة وضمير حي ، قال : « انه ، بينما كان ذات يوم ، مشتغلًا بتجليد الكتب ، اذا بعاصفة هوجاء تهب منذرةً بضرر جسيم . فما شعر بها حتى هبّ لساعته ونادى احد الاخوة : أن اذهب حالًا وقل لوكيل الحقل ليخرج الابقار من الحارة قبالة الدير » . فضحك منه الاخ ولم يعبأ بقوله . فصرخ به عندئذ وشدّد عليه الامر والا وقع ما لا تحمد عقباه ، فعندها امتثل الاخ الامر وما ان اخرجوا الابقار من القبو حيث كانت ، حتى انهار من اساسه. فزادت ثقتهم برجل الله واحترامهم شخصه المبجل واوامره وآراءه الصائبة » .

---

١) المشرق ٥ (١٩٠٢) صفحة ٦٠٥

وفاته وشفاعته لدى الله

ولما رأى الله ان عبده قد نضج واصبح ثمرةً دانية القطوف ، اراد ان ينقله من دار الشقاء وساحة الجهاد ليكلله بالاكليل الذي وعد به مجاهديه الظافرين. ففي اوائل شهر كانون الاول من السنة ١٨٥٨ اصيب الاب نعمة الله وهو في كفيفان بدا. ذات الجنب المؤلم واشتد المرض عليه فاضطرّ ان يلازم الفراش ، ثم انتابته ادوار الحمّى الشديدة وعجز الاطباء عن شفائه. ولما احس بان اجله قريب ، اخذ يستعد للملاقاة ربه وطلب الاسرار المقدسة . وكان جمهور من الآباء والاخوة حاضرين وفاتيه ومنهم تلميذه الاب شربل مخلوف والابوان نعمة الله الكفري ودانيال البشراوي مرشده . وكان جميعهم متأثرين متعجبين مما رأوه في هذا الرجل البار من طمأنينة القلب وصفاء النفس ، ما لا يشعر به في حشرجة الموت وسكراته ، غير اصفياء الله الابرار. ولما اشتدت وطأة الحمّى وغاب عن وعيه ، سمعه الحاضرون يكرر صلاته المعتادة : « فليكن مباركاً الحبل بسيدتنا مريم العذراء البري. من الدنس ». وكان ، اذا ثابت اليه نفسه ، التفت الى ايقونتها امامه ، ملتمساً شفاعتها حتى اسلم الروح وهو يقول والابتسامة تعلو ثغره : « بالسلام ارقد وانام. يا يسوع ومريم ومار يوسف ، بين ايديكم استودع روحي ». فتسلمت البتول روحه الطاهرة في ١٤ من شهر كانون الاول ١٨٥٨ نصف ليل الثلثاء بعهد رئاسة الاب لورنسيوس الشبابي العامة على الرهبانية ورئاسة الاب نعمة الله التولاوي على الدير المذكور . فعمّ الاسف الجميع على هذه الخسارة الجسيمة وعلى انحجاب ذلك الوجه النبيل وكوكب الفضيلة الساطع في سما. الرهبانية اللبنانية التي استضاءت بنوره مدة ثلاثين سنة وقد فاخرت وما تزال تفاخر بفضائله النادرة .

روحانيته

يحلو لنا الآن ان نتنقل ، ولو قليلاً ، في مطاوي تلك النفس الجميلة وان نسبر غور تلك الشخصية الممتازة ، ما استطعنا اليه سبيلاً ، مكررين أسفنا على

ان لا يكون لدينا معلومات مسهبة عن اطوار حياة رجل الله هذا. وكم كنا نتمنى لو اقدم هو نفسه على كتابة سيرته ، وابقى لنا أثرًا من مراسلاته وان قليلة نادرة ! فاكتفينا بسرد حياته قائلين مع الشاعر :

« والنفس راغبة اذا رغّبتها واذا تردُّ الى قليل تقنعُ »

حسبنا ان نرى تلك الشخصية الفذّة ، وقد لبست الوقار وشاحاً واتخذت النعمة سلاحاً ، تسير بقدم الجبار ، شوطها في الحياة ، معتكفةً على اجلّ الاعمال واسماها ، متحدةً بالله الذي منه كل عطية صالحة وكل موهبة كاملة (يعقوب ١ : ١٧). كانت البساطة في العظمة والصمت الناطق بكلمة الحق وجمال الفضيلة. نفسٌ كبيرة وثّابة الى العلاء ، صغُرت في عينها الدنيا فطارت بجناحي الايمان والمحبة بيسوع ربها وحبيبها ، اتخذته في سر الافخارستيا محبّها وسميرها . ارادة مرهفة اعتصمت بالرجاء. واستهدفت الخير الاسمى لا تقف بوجهها مصاعب وعقبات.

ان الرهبانية كانت تجوز في تلك الحقبة من الزمان ، أحرجَ الظروف مما لا يساعد على الدقة في حفظ القوانين والحياة النظامية ، لما طرأ عليها من التراخي وما تسرّب اليها من عادات تنافي غايتها. ولذلك كان رجل الله الحرديني يقف في وسط تلك المصاعب وقفة الجندي الباسل ، مثابرًا على خطته القانونية بكل دقة وحزم ، يشجع كل اخوته على اقتحام الصعوبات واحتمال المحن موجهاً اليهم كلامه المشهور : في مثل هذه الظروف والاحوال ، « الشاطر يخلّص نفسه » . وهو يعني بذلك ان الراهب العاقل النشيط صاحب الارادة ومعها النعمة ، لا ينثني عن حفظ قوانينه ولا يرجع القهقرى مهما كانت الظروف. وعليه ان يمرّ بما يراه من خلل ، مرَّ الكرام .

ان المثلث الرحمة السيد فريديانو جيانيني القاصد الرسولي آنذاك ، وهو من رجال الكنيسة العلماء المفكرين ، عندما وقف على هذه الميزة في حياة الاب الحرديني ونظر في ملفّ دعواه ، قال : « حسب هذا الراهب قداسةً أن يكون

حفظ قوانينه ، على رغم ما كان يحيق به من المصاعب » . ولما عرف بوفاته المثلث الرحمة البطريرك بولس مسعد وهو من اعاظم بطاركة الطائفة المارونية ، قال : « بالحقيقة هـذا الرجل ترهب كما ينبغي فهنيئاً له » . انه لكلام بليغ يتضمن ، على ايجازه ، اسمى معاني الكمال الرهباني .

اليك ما قاله فيـه الاب ميتر اليسوعي ، رحمه الله ، اذ كان مدير المعهد الاكليريكي الشرقي في جامعة القديس يوسف — بيروت — وهو من الآباء المشهود لهم بالعلم والتقوى. وقد جاء دير مار قبريانوس كفيفان وطلب ان يزور ضريح الحرديني ، لما كان يسمع عنه . وما ان دخل المعبد الخاص ووقع نظره على ذلك الجثمان الراقد في صندوق من خشب الاينوس[1] ، حتى جثا هو ومن معه واخذ يصلي خاشعاً متأثراً . ثم سأل : ماذا كانت سيرة هذا الراهب وما هي اعماله الممتازة ؟ — فأجيب انه كان مثابراً على حفظ قوانينه بكل دقة . فقال : كفى انه لقديس حقاً لان قداسة الراهب قائمة بحفظه القوانين ». وهذا رأي علماء الروح بهذا الشأن .

أما مئات الخوارق والمعجزات التي جرت حول ذلك الضريح واهمها شفاء اعمى وكسيح مقعد في جهات المتن ؛ فقد دوّن بعضهـا معاصره وسميره الاب نعمة الله الكفري المار ذكره وهو رجل ثقة لما تحلّى به من دقة النظر والضمير الحي . واذ كان رئيساً عاماً علّق عـلى روزنامة الدير او سجل العجائب هذه العبارة بنصها الحرفي :

« انا المدوّن اسمي بذيله ، كاتب حياة الطيب الذكر الاب نعمة الله الحرديني ، اشهد امام الله والناس اني لم اكتب شيئاً فوق ما عرفته عن هذا الرجل الفاضل ،

---

١) هو الصندوق الذي قدمه المغفور له الطيب جورج شكر الله الذي كان معجباً بالاب الحرديني وبالاشفية العديدة الغريبة التي كانت تجري حول ضريحه . وقـد خبر الامر هذا الطيب بنفسه .

بذاتي او ما سمعته من اناس صادقين عاينوا وشاهدوا ما قالوه لي . هذا وبعد مراجعة ما كتبته وتمعنت فيه مليا قد مضيته بخط يدي وسهرته بختم وظيفتي لاجل البيان والمصادقة . واذكر ايضاً ان راهبنا الاب روفايل البزعوني الذي كان حاضراً ساعة موته ، قال لي انه شاهد ، وقت انفصال نفسه البارة عن جسمه الطاهر ، شيئاً من النور البهج خرج من فمه . وهكذا انقطع خيط حياته المقدسة » .

تحريراً في ٣٠ كانون الثاني ١٩٠٦

(الختم) كاتبه

نعمة الله الكفري

اب عام لبناني